المشرق

تجارة سواحل سورية

في الاجيال المتوسطة

لحضرة الاب هنري لامنس اليسوعي

لا بحرَ في هذا الكون احرزَ لهُ مجداً اثيلاً في التاريخ مثل البحر المتوسط الذي يبسط مياههُ الزرقاء امام سوريَّة ويكثر امواجهُ على شواطئها . فمن الابحار ما اغمر قعراً فسيحاً من الكرة الارضيَّة ومنها ما استلفت الابصار بطوارفهِ وحوادثهِ . امَّا البحر المتوسط فانَّ شهرتهُ لا تتوقَّف على اسباب كهذه فهو يمٌ لا مشاهدَ فيهِ وهيبة حتَّى ولا يقوم بذاتهِ بل اوشك ان يكون للمحيط الاتلنتيكي خليجاً لاتصالهِ بهِ عند برغاص جبل طارق لكنَّكَ اذا اعتبرتهُ معدوماً فقدتَ ثلاثة آلاف سنة من اعظم تواريخ البشريَّة وافخم آثارها والبرهان على ذلك سهل المنال نكتفي لايضاحهِ بكلام بليغ القى بهِ الشاب الاديب الشيخ انطون الجميل في خطبةٍ حديثة ألقاها في هذا الموضوع . قال :

« ان على شواطئ هذا البحر سطع نور التمدن وتجلى باكمل مظاهره . فالبحر هذا كان في غابر الأيام محور الحضارة وقاعدتها وسيكون كذلك في مستقبل الزمان فانهُ قد توفرت فيهِ كل شروط التمدن : التربة جيدة والسهول مخصبة والمعادن متوفرة والانهار عذبة تلك شروط تقدُّم الزراعة والفلاحة . السماء صافية زرقاء والشمس ساطعة منيرة والجوّ رائق والهواء خفيف والنسيم لطيف تلك شروط تقدم الشعر والفنون . ومن تقدم الفلاحة والزراعة والعلوم والفنون يتولَّد النجاح المادي اعني الثروة وامتداد السلطة

« ان بحرنا هذا ليس الَّا بحيرة بالنسبة الى الاوقيانوس لكنهُ يظهر لنا في التاريخ

كالبحر الاكبر : كان مهد الشعوب ومنبت الابطال . حدثت فيه الحوادث المشهورة وجرت على شواطئه المواقع المأثورة ففي أيام الحرب كان ساحة الهيجاء . وفي أيام السلم كان مجتمع العلماء . فمن يوم اكتشاف الفينيقيين فن الملاحة حتى اكتشاف كريستوف كولب العالم الجديد كم من شعوب ! كم من دول ! كم من مدن ! كم من مآثر . . . كلها حول هذا البحر »

ولسنا نزاول الآن إحياء كل هذه المآثر الغابرة فحسبنا ايضاح اهمية التجارة في هذا الحوض لكنَّ موضوعاً كهذا لا تستوفيه مقالة واحدة مهما وسعت نطاقها واوردت من الحوادث والوقائع فاقتصرنا على ثلاثة من الاجيال المتوسطة نعني بها الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر . وكانت سوق هذه التجارة على وشك الاضمحلال في القرنين الثامن والتاسع لكنَّها هبَّت من رقدتها في القرن العاشر . وممَّا حدا بنا الى إيثار تلك الاجيال دون غيرها هو ظهور كتاب نفيس يشهد لمؤلفه بسعة العلم ودقَّة الفحص مداره على هذه القرون الثلاثة (١ فاخترنا منهُ ما يدلُّنا على تجارة سواحل سوريَّة في تلك الأيام ضاربين صفحاً عمَّا سواها من البلدان المجاورة

١ في الامم التي كانت تواصل التجارة في سوريَّة

لسكَّان ايطاليا في هذا الشأن السبق والتقدّم ولا عجب فان بلادهم تقوم على شواطئ البحر المتوسط وتجاور الشرق والطريق امامهم مفتوحة فاستحثَّهم ذلك الى الاتجار مع السوريين وكانت اوائل حكومات جنوة وبيزة والبندقيَّة تقتسم ايطالية وتقوم كل بذاتها وتفرغ الجهد في توسيع نطاق التجارة وتوفير اسبابها فاقتحمت لجج البحار واقلعت بمراكبها وبلغت شواطئ بلادنا الشرقيَّة وذلك في أبان الجيل الحادي عشر وفي الجيل التالي بلغت العلاقات بين سوريَّة وايطالية أوجها لسبب الطوارئ التاريخيَّة والاقتصاديَّة سيَّما بواسطة الزوَّار الذين كانوا يؤمُّون الاراضي المقدَّسة

وفي بادئ بدء جارى الايطاليين بعضُ التجَّار من اهل بلجكة وانكلترة انما شسع بلادهم انذرهم بالغلبة فعدلوا عن اسفارهم البعيدة (٢ . وممَّا يقضي بالعجب هو اننا لا

(1 PROF. ADOLF. SCHAUBE. Handelsgeschichte der romanischen Voelker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzüge. München, Œdenbourg, 1906, S°, XX - 816 pp.

٢) انظر الكتاب السابق (Schaube, 122, 124, 132)

نجد عندئذٍ اثرًا للمراكب الافرنسيَّة في سواحل سوريَّة لكنَّها ما عتمت ان أمَّتها تقلُّ تجَّارًا من مرسيليَة (نحو سنة ١١٣٦) ثم اخذت بعض مرافئ جنوبي فرنسة كمونبلّيه (Montpellier) وأرُل (Arles) تبعث بسفنها ورغمًا عن ذلك لم تتوصَّل المرافئ الافرنسيَّة الى مجاراة جنوة والاستظهار عليها لان هذه بذلت جهدها وافرغت ما بوسعها لتبقي لتجارتها الفوز والغلبة (١ ولا بأس من الاقرار انهُ حتى بعد كسر شوكة جنوة والانتصار عليها لم يتوفَّق التجَّار الافرنسيون (٢ ان يحرموا الايطاليين مراكزهم الممتازة في سوريَّة والفوائد الراجعة اليهم من جرَّاء عدد مراكبهم ومواطنيهم الذين منذ امدٍ مديد تجرَّدوا للاتجار في الشرق لكنَّ مرسيلية من ذاك العهد اصبحت اعظم مرفإ افرنسي على البحر المتوسط

٢ اهمَّة مرافئ سوريَّة في تلك الاجيال

لا مرَاء ان المقام الاوَّل يرجع الى مدينة عكَّا فكانت اذ ذاك المرفأ الاعظم وقاعدة التجارة ومركز القناصل العامّين وقد نالت هذه الرتبة من علل تاريخيَّة فضلًا عن جودة مرساها. ثم تعقبها في الاهميَّة مرافئ صور وطرابلس والسويديَّة التي كانت تدعى حينئذٍ بيمنا مار سمعان (٣ ثم اخيرًا بيروت. امَّا هذه المدينة فان تجارتها لم تكن في الجيلين الثاني عشر والثالث عشر الَّا في خطوتها الاولى (٤ لكنها كانت تتقدَّم رويدًا رويدًا حتَّى آل الامر بحكومة البندقيَّة ان تقيم فيها قنصلًا. ومنذ القرن الخامس عشر فازت على سائر المدن كما اظهرناهُ في تاريخنا للاخ غريفون (٥ . وقد وجدنا بعض الذكر للمرافئ الثانويَّة في سوريَّة كيافا وحيفا وجبيل والبترون

ولم تكن نوامس الملاحة في ذلك العهد على مجراها اليوم. فمن ذلك انَّ ارباب السُّفن كانوا يتحاشون السفر في الشتاء خوفًا من انواء البحر. وكانوا يقلعون في الغالب

١) راجع الكتاب ذاته وجه ١٣٢ و ١٤١ و ١٧٧ و ١٨٥ و ١٨٦

٢) كان تجار الافرنسيين نظرًا لعدم اليسر يتَّحدون مرَّات كثيرة مع الاسبانيين ويتَّخذون لهم قنصلًا وحيدًا

٣) اكرامًا لدير مار سمعان العامودي الصغير القائم على الجبل العجيب

٤) انظر كتاب شوبي وجه ١٢٦

٥) انظر المشرق السنة الاولى (ص ١٥)

من بلادهم في فصلي الربيع والصيف ليكون رجوعهم الى مواطنهم في اواخر تشرين الاوّل. ويبحرون جملةً في عدّة مراكب متألفة ومتآزرة يبلغ احيانًا عددها ٢٢ مركبًا. وكان يمشي في رفقة هذه السفن التجارية بوارج لردّ غارات بعض القرصان الذين كانوا يخوضون البحر المتوسط ويوسعونهُ نهبًا وسلبًا. امّا السفن الشراعيّة فكانت معتدلة الكبر لا تبلغ حجم بواخرنا الحاليّة وان كان بعضها كافيًا لنقل ١٥٠٠ راكب. والدليل على ذلك اوامر النقابة البحرية التي كانت تنهى عن مجاوزة هذا العدد (١ ولنا في رحلة ابن جُبير (ed. Wright) ما يؤيد ذلك ويثبت صحّتهُ. وزد على هذا انّ المراكب الحاليّة مع سعتها تحتاج الى مواضع فسيحة لتجهيز الادوات البخاريّة ولمستودعات الفحم وغير ذلك ممّا كان الملّاحون عنهُ في غنًى في ذلك العهد

٣ البضائع المشحونة من سورية

لو اردنا تعداد اصناف البضائع التي كانت تشحنها السفن التجارية في القرون الوسطى لظهرت للعيان محاسن الصناعة السوريّة وترقّي زراعتها في تلك الازمنة. فمثلًا كان تجار الفرنج يستبضعونهُ الحرير السوري وخصوصًا القطن في كيّات بالغة وكانوا ايضًا يتسوّقون الكتّان غير المشغول فضلًا عن الانسجة الكتّانيّة والحريرية وكان للسوريين حذاقة كبيرة في استحضار الاقمشة البهية التي كان الاوربيّون يعظّمون قدرها ويتنافسون في اقتنائها

وكانت صور في ذلك العهد لا تزال تتّجر بالارجوان الذي اكسبها فخرًا وارباحًا طائلة في الاعصار السالفة. وكذلك اشتهرت تلك الحاضرة بآنيتها الصينيّة وبزجاجها الفاخر وكانت معاملها معروفة لدى القاصي والداني. وكان الاوربيون ما عدا ذلك يقبلون على حرير انطاكية وزجاجها. وممّا كانوا يشحنونهُ على سفنهم في كلّ المدن الساحليّة وخصوصًا في صور وطرابلس السكّر يبتاعون منهُ القناطير المقنطرة. وكانوا يضيفون اليهِ ضروب الاثمار والعقاقير والحشائش الطبيّة والادهان العطرية

وكان الفرنج في الاعصار المتوسطة يتوقون الى تجارة البهار (٢ وكان اكثر ما

---

١) اطلب كتاب الاستاذ شوبي (Schaube, 202)

٢) الكتاب المذكور (Schaube, 163)

يحصلون عليه في السواحل المصرية. لكنَّ البنادقة اتجروا به ايضاً في حلب فكانوا يجلبون منهُ كمّيات وافرة كما انهم كانوا يجدون في الشهباء اقداراً عظيمة من القطن والشبّ. الّا انَّ متاجرة اوربّة مع حلب احدث عهداً لم يُباشر بها قبل النصف الثاني من القرن الثالث عشر. ومن مرافقها انَّ كثيراً من خيرات الهند والعجم كانت تتدفق اليها وتتوفّر فيها.

٤ تنظيم المقامات التجارية في سورية

وكان تجّار الفرنج لا يكتفون فقط بالتجوّل في مدن سوريّة الساحليّة للمتاجرة بأرفاقها بل كان قومٌ منهم يقيمون ايضاً في تلك الحواضر ازمنةً متباينة لمواصلة اشغالهم وكان لهذه الحلّات نظام تجاريّ خاصّ بها والحكومة المحليّة تسعى في تنشيطها وتوسيع نطاقها لما يترتّب عليها من ترقية التجارة وتحسين احوال البلاد. وكذلك اهل المدن الساحليّة كانوا يصرفون المجهود في فتح هذه الحلّات في مرافئهم وتوفير التسهيلات مع اربابها كخفض بعض الضرائب على اصناف البضائع وتمتيعها بنعم أُخرى جرت بعدئذٍ مجرى الامتيازات (Capitulations) في ايّام السلاطين العظام

وممّا كان يألفهُ التجّار الاجانب انهم كانوا يسكنون في حيّ واحد فيأنسون بالمجاورة وكانوا عادةً يشيّدون لهم في جيرتهم كنيسةً ليقيموا فيها فرائضهم الدينيّة. وكانوا يلحقون بحيّهم المذكور بعض المستودعات لصوان البضائع التجاريّة ويتّخذون لخبزهم فرناً عموميًّا وحمّاماً للاغتسال. ذلك كان مجمل ما يحتويهِ حيّ الفرنج في كلّ مدينة. ولمّا كان اهل الحيّ في حاجة الى تدبير امورهم وتنجيح متاجراتهم وانهاء الخاصمات الطارئة بينهم اقتضى الامر ان يُقام لهم قناصل ينظرون في امورهم ويحفظون السلام بينهم. واوّل ما ورد اسم هذا العامل في جملة النزّالة الجنويّة التي كانت في عكّا في اواسط القرن الثاني عشر ودعوهُ اوّلاً بنائب القنص (Vice-Comes, Vicomte) ثمّ انتشرت هذه الرتبة في امكنة شتّى في النصف الثاني من ذلك الجيل وعُرف اصحابها بالقناصل. وأطلق اسم القناصل اوّلاً على الايطاليين اما الفرنسويون فاوّل من نال منهم رتبة القنصل انّما حظي بها سنة ١١٨٧ في صور (١

(١ من اراد الوقوف على تاريخ القناصل في الشرق عليه بمراجعة تأليف شوبي (Schaube 128, 137, 139, 175-6, 187 etc.)

*

هذا نظر عمومي يبيّن للقرّاء ما ضمّنهُ الاستاذ شربي كتابهُ من المواد المختلفة والمعلومات المتفرّقة المبثّة في كتب متعدّدة فراجع كلّ الجامع التي كان يؤمل ان يلقى فيها لابحاثهِ فوائد جديدة. وقد سرد جدولًا واسمًا لهذه المصنّفات التي وقف عليها فلم نكد نجد فيها خللًا الّا في النادر فانهُ مثلًا لم يذكر تآليف العلّامة يورغا (Jorga) من علماء رومانية . امّا المصادر الشرقيّة فان المسيو شربي راجع منها ما وجدهُ منقولًا الى لغة اوربيّة ولو امكنهُ مطالعة التآليف الاصليّة — وكثير ما هي — لاستفاد منها فوائد جمّة لتأييد معارفهِ ولانتقاد ما ذكرهُ من المعلومات

وهذا النقص صغير بالنسبة الى ما وجدهُ المؤلف فاودعهُ في مصنّفهِ النفيس الذي يدلّ على طول باع الالمان في معرفة احوال الشرق . وممّا يثبت دقّتهُ في الامور انهُ لا يؤكد شيئًا دون ان يثبتهُ بالحجج والاسانيد الوضيّة . وعليهِ فان هذا الكتاب ليس هو فقط اهلًا بالمطالعة بل هو جدير بالدرس الطويل . وغاية ما نتمنّى ان يتولّى العلماء على مثال المسيو شربي تاريخ التجارة البحريّة في بحر الشام مدّة الاعصر التي لم يتعرّض لكتابة اخبارها

رحلتي الى الشوا

او من هرر الى اديس ابابا عن طريق التشرشر

للصيدلي القانوني عبدالله افندي ميخائيل رعد (تابع)

عن مضرب كرا كوركورا — الثلاثاء ٢٢ ايار سنة ١٩٠٦

(المرحلة الثالثة عشرة) لم نجد في هذا النهار شيئًا يُذكر فاننا نصبنا المضارب في نفس وادي التشرشر الذي اقمنا فيهِ امس وكان الطريق بين هاتين المحطّتين كلهُ مكشوفًا ساطعًا بانوار الشمس لا صمود فيهِ ولا انحدار. ولكنّ مزدرعات البنّ في هذا السهل كثيرة ويوجد في طرفهِ الجنوبي بحيرة كبيرة رأيناها عن بُعد نحو كيلومتر واحد على شمال طريقنا يدعوها الاهالون بحيرة التشرشر وهي توازي تقريبًا بحيرة هرامايا التي وصفناها سابقًا. اما محل مقامنا فهو رابية صغيرة من روابي هذا السهل وبجانبها نبع ماء أجاج